Diyala Journal
for Human Research
Website:
djhr.uodiyala.edu.iq

مجلة ديالى
للبحوث الإنسانية

p ISSN: 2663-7405
e ISSN: 2789-6838

مجلة ديالى للبحوث الانسانية

العدد (100) المجلد (3) حزيران 2024

دلالات المكان في شعر ابن زيدون

The connotations of place in Ibn Zaydoun's poetry

م.د احمد ناجي نايف المعموري
جامعة ديالى/ كلية التربية للعلوم الانسانية

Abstract

This study seeks to reveal the definition of the familiar place as one of the main components in Arabic poetry in Andalusia, as well as to investigate the manifestations of place in Arabic poetry in Andalusia among examples of Andalusian poets in two different eras, as well as, it's seeks to know the connotations of place and its manifestations in specific examples of Ibn Zaydoun's poetry., in which places such as Cordoba, Al-Zahra Palace, Tortosa, and Badajoz, whether the creative discourse related to those places is in which the poet organizes his poetry in isolation from the main place that shaped his poetic experience, such as the city of Cordoba, the incubator of the Islamic caliphate in Andalusia, as well as whether the place relates to specific people or is it a hero in itself, and whether Ibn Zaydoun's poetic settings were formed in isolation from poetic time. Thus the researcher started from those previous hypotheses, which made the study more flexible and remarkable.

Email:
ahmednaji108727@gmail.com

Published: 1- 6-2024

Keywords: الاندلس، ابن زيدون ، المكان

هذه مقالة وصول مفتوح بموجب ترخيص
CC BY 4.0
(http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/)

الملخص

تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن تعريف المكان الأليف بوصفه أحد المكونات الرئيسة في الشعر العربي في الأندلس، وكذلك استقصاء تجليات المكان في الشعر العربي في الأندلس عند نماذج من الشعراء الأندلسيين في عصرين مختلفين، كذلك تبتغي معرفة دلالات المكان وتجلياته في نماذج بعينها من شعر ابن زيدون، برزت فيها أماكن مثل قرطبة وقصر الزهراء وطرطوشة وبطليوس، وما إذا كان الخطاب الإبداعي المتعلق بتلك الأماكن ينظم فيه الشاعر شعره بمعزل عن المكان الرئيس الذي شكل تجربته الشعرية وهو مدينة قرطبة حاضنة الخلافة الإسلامية في الأندلس، كذلك إذا ما كان المكان يتعلق بأشخاص بعينهم أم أنه بطل في حد ذاته، وما إذا كان ابن زيدون قد شُكلت أماكنه الشعرية بمعزل عن الزمان الشعري، ومن ثم كان انطلاق الباحث من تلك الفرضيات السابقة، وهو ما جعل الدراسة أكثر مرونة وجدية.

المقدمة

مدخل منهجي:

يعد المكان الوطن والمأوى والمسرح الذي تقوم عليه أحداث الحياة، وعلاقة الإنسان بالمكان علاقة متأصلة تعود إلى اللحظة الأولى التي نزل فيها على الأرض، وعلى الرغم من ذلك فلم ينل المكان الاهتمام النقدي الذي نالته عناصر التكوين الإبداعي الأخرى، على الرغم من كونه عاملا أساسيًا ورئيسيًا في العمل الإبداعي، لا سيما الشعر الذي يُعد المكان اللبنة الأولى في بنائه التكويني؛ لذا فـ"يرتبط البشر ارتباطًا وثيقًا وحيويًا بالمكان الذي يعيشون فيه، فالإنسان يعيش في جسده وبه، ويموت إذا أصيب بمكروه، ولكن هناك مساحة تجاوز هذا الجسد ولكنها لا تقل أهمية بالنسبة لحياته"[1] إنها المكان. وقد أدرك الإنسان منذ القدم أهميته؛ لأن "وجود الإنسان لا يتحقق إلا من خلال علاقته بالمكان، وأنه على قدر إحساس الإنسان بأنه مرتبط بالمكان يكون إحساسه بذاته"[2]، وقد يكون المكان ملهمًا للمبدع نفسه، هو ما أكده غاستون باشلار في قوله: "إن كل أماكن عزلتنا الماضية، والأماكن التي عانينا فيها من الوحدة، والتي استمتعنا بها، ورغبنا فيها وتآلفنا مع الوحدة فيها، تظل راسخة في داخلنا؛ لأننا نرغب في أن تبقى كذلك. الإنسان يعلم غريزيًا أن المكان المرتبط بوحدته مكان خلاق، يحدث هذا حتى حين تختفي هذه الأماكن من الحاضر، وحين نعلم أن المستقبل لن يعيدها إلينا، وحين نعلم أنه لم يعد هناك عليَّة، ولا حجرة سطح، تظل هنالك حقيقة أننا عشنا مرة في حجرة السطح، وأننا مرة أحببنا العليَّة"[3]، وفي المقولة السابقة يفسر باشلار الارتباط النفسي بين الإنسان والمكان، فيجعل من المكان عاملاً أساسيًا للخلق الإنساني الإبداعي المتخيل. ولنا في المقدمات الطللية في المعلقات الجاهلية النموذج

الأكثر وضوحًا في علاقة الإنسان بالمكان؛ تلك العلاقة التي جعلها أحد أهم المكونات الإبداعية التي يتغنى بها الشعراء، أو لنقل قمة الهرم الشعري العربي في العصر الجاهلي.

مفهوم المكان لغة واصطلاحًا:

جاءت لفظة "مكان" في القرآن الكريم في ثمانية وعشرين موضعا[4]، وعلى الرغم من هذا العدد الكبير؛ لكن لكل موضع معنى مختلف، فجاءت في قوله تعالى: "واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا"[5] بمعنى موضع أو محل شرقي بيت المقدس، وجاءت أيضا بمعنى المنزلة في قوله تعالى "قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا"[6]، وشر مكانا هنا لها دلالة معنوية وقد جاءت معنى شر منزلة، ووردت أيضا بمعنى بدل مثل قوله تعالى "قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ"[7]. أما في المعاجم العربية فجاء المكان في معجم الخليل بمعنى الموضوع؛ حيث قال إن المكان "في أصل تقدير الفعل مفعل لأنه موضع للكينونة"[8]، وأورده الجوهري بمعنى مشابه؛ فـ"المكان: الموضع، والجمع أمكنة، كقذال وأقذلة، وأماكن جمع الجمع"[9]؛ لكن الزبيدي جاء بمفهوم أوسع معتمدا على آراء الفلاسفة والمتكلمين؛ حيث قال إن "المكان الموضع الحاوي للشيء، وعند بعض المتكلمين أنه عرض، وهو اجتماع جسمين حاو ومحوي، وذلك ككون الجسم الحاوي محيطا بالمحوي. فالمكان عندهم هو المناسبة بين هذين الجسمين، وليس هذا بالمعروف في اللغة" وقد قرب الزبيدي بين المفهوم اللغوي والاصطلاحي للمكان، ولم تركز أغلب المعاجم اللغوية على ما ذكره الزبيدي، ولعل ذلك يرجع إلى عدة من اختصاص الاصطلاحية، في حين اهتمت بنقل ما ذكره اللغويون السابقون"[10].

أما في الاصطلاح، فقد اتخذ المكان بعدًا فلسفيًا مع الفلسفة اليونانية ويعد أفلاطون أول من صرح بذلك إذ عده حاويًا وقابلاً للشيء[11]، وانتقل هذا التعريف إلى فلاسفة العرب أيضًا بنفس المعنى عند ابن سينا والفارابي وأخوان الصفا[12]، لكن الكندي كان أكثر علماء الفلسفة العرب اتفاقًا مع المفهوم الأفلاطوني للمكان وقد حدد المكان بحدين: الأول نهايات الجسم، والثاني التقاء أفقي المحيط والمحاط به[13]. أما في العصر الحديث فقد اهتم النقاد والباحثون بالمكان اهتماما كبيرا؛ جعلهم يفردون دراسات لاستجلاء مفهوم المكان. فترى آن شكمان أن المكان هو "مساحة ذات أبعاد هندسية أو طبوغرافية تحكمها المقاييس والحجوم"، وهو مفهوم مهم في قراءة المكان الأدبي بوصفها حيزًا مهما يساهم في تشكيل النص الإبداعي، ووضعت سيزا قاسم مفهوما مبني على تعريف آن شكمان، فترى أنه "الإطار الذي تقع فيه الأحداث"، وثمة مفهوم آخر أكثر التصاقًا بالدراسات الأدبية هو تعريف حبيب مونسي الذي عرف المكان قائلا: "هو فضاء تتعدد وظائفه ومعانيه بالنسبة لصاحبه وللآخرين"، ويتوسع ياسين النصير في شرح

مفهوم المكان ليرى أن المكان "يعني بدء تدوين التاريخ الإنساني، والارتباط الجذري بفعل الكينونة لأداء الطقوس اليومية للعيش، وللوجود، ولفهم الحقائق الصغيرة لبناء الروح، وللتراكيب المعقدة والخفية لصياغة المشروع الإنساني ضمن الأفعال المبهمة"[14].

حب المكان الأليف في الشعر الأندلسي:

إن وقوف الشعراء العرب القدامى على الأطلال لم يكن مجرد تقليد يقومون به في مطالع قصائدهم لتحميل القصيدة ما ليس فيها، بل كان طقسًا حقيقيًا كانوا يفعلونه، وهو ما استمر حتى يومنا، فسكن المرء أو ولادته في إحدى المدن ربما يجعلها موضع محبة وتقدير، سواء كان المُحب شاعرًا أو إنسانًا عاديًا، وعلى الرغم من هذا فقد ثار الشعراء العرب في العصر العباسي على الوقوف على الأطلال، وخير مثال على تلك الثورة قصائد الشاعر أبي نواس، فقد خفف الشعراء العباسيون ومن جاءوا وراءهم من مطالع القصائد القديمة. ولم يقف الأندلسيون على الأطلال كما فعل أسلافهم المشارقة، وربما يعزى هذا لسبب أن الطبيعة الأندلسية المغايرة للصحارى العربية شغلتهم عن ذلك، لذا فقد عبَّر الشعراء الأندلسيون عن حبهم لأوطانهم بوصفها الأماكن التي نشأوا وترعرعوا وعاشوا فيها وألفوها؛ مما جعلهم يتغنون –في قصائد كاملة وليس مطالع قصائد فقط– بجمال مدنهم التي كانت حينئذ أمثولة في الجمال، فنجد أبا عبد الله الرصافي البلنسي يصف جمال مدينته قائلًا:

بَلَنسِيَةٌ تِلكَ الزَبَرجَدَةُ الَّتي تَسيلُ عَلَيها كُلُّ لُؤلُؤَةٍ نَهرا

بِلادي الَّتي ريشَت قُوَيديمتي بِها فُرَيخاً وَآوَتني قَرارَتُها وَكرا[15]

وفي البيتين السابقين يُعبِّر الشاعر عن مدى حبه وتعلقه ببلنسية، واصفًا إياها بالزبرجدة، وهي نوع نفيس من الأحجار الكريمة، وهذان البيتان يدلان على مدى الترف الذي كانت تعيشه الأندلس وقتئذ، بوصف بلنسية إحدى المدن المشكلة لشخصيته الشعرية، وهو ما يمكن تسميته بمدح المدن والتغني بمحاسنها وأنسنتها في الآن نفسه، كذلك نجد الشاعر ابن خفاجة يقول مادحًا الأندلس عمومًا في قوله:

إِنَّ لِلجَنَّةِ في الأَندَلُسِ مُجتَلى حُسنٍ وَرَيّا نَفَسِ

فَسَنا صُبحَتِها مِن شَنَبٍ وَدُجى ظُلمَتِها مِن لَعَسِ

فَإِذا ما هَبَّتِ الريحُ صَبّاً صِحتُ وا شَوقي إِلى الأَندَلُسِ[16]

يريد ابن خفاجة في الأبيات السابقة أن يقول إن الأندلس هي جنة الله على الأرض، فهي الحُسن الكامل، وفيها راحة النفس، فأمكنتها كلها حسنة، ولياليها رائعة، وأجوائها ممتعة، وفيها يأنس الإنسان ويرضى،

وهو في هذه الأبيات يعبر عن مدى شوقه ومحبته للأندلس، وقد قال تلك الأبيات وهو بالمغرب الأقصى، في بر العدوة.

إن أبا عبد الله الرصافي وابن خفاجة وما نظما من شعر في محبة بلنسية والأندلس يُعدان نموذجين دالين دلالة واضحة على مدى تعلق الشعراء الأندلسيين بأوطانهم وتشوقهم لها حينما يكونون بعيدين عنها، سواء بإرادتهم أو رغما عنهم، وهو ما سيتجلى في شعر ابن زيدون النموذج الذي تقوم عليه هذه الدراسة.

المكان ودلالاته عند ابن زيدون:

استطاع ابن زيدون أن يُعبر عن محبته للمكان الشعري الأليف ويصيغه –شعريًا– صياغة مفارقة، فعمد إلى إظهار الأماكن في الأندلس وتشكيلها شعريًا بما يتوافق تاريخها المجيد، وفخامة مبناها، وجمال طبيعتها، ليس المكان فحسب، لكن ارتباطه بالمكونين الأساسيين اللذين تقوم عليهما هذه الدراسة وهما المكان والزمان، فقد كان إحساسه وشعوره وتشكيله الشعري للمكان مميزًا عن غيره من الشعراء، فكانت قرطبة وقصر الزهراء أكثر الأماكن ذكرا وبروزا في شعره، لذا ستقوم هذه الدراسة على هذين المكانين بوصفهما من الأماكن الأليفة التي برزت في شعره، بالإضافة إلى بعض الأماكن الأخرى التي سنسميها "صدى قرطبة والزهراء في المنفى"، وهي الأماكن التي صاغ الشاعر فيها شعره معبرًا عن حبه وهو خارج الأندلس أو على حدودها.

أولًا: قصر الزهراء:

كانت الزهراء وقصرها أحد أهم الأماكن الملهمة في شعر الشعراء الأندلسيين، وابن زيدون على وجه الخصوص عبَّر عن ألمه لبعده عن هذا القصر؛ فنظم قصيدة أرسلها إلى معشوقته ولادة بنت المستكفي، يسألها فيها أن تظل على عهد محبتها له، متحسرًا –في تلك القصيدة– على الأيام الماضية التي جمعتهما، وكان المكان "القصر" أحد أبطال تلك القصيدة، يقول:

يا سارِيَ البَرقِ غادِ القَصرَ وَاِسقِ بِهِ مَن كانَ صِرفَ الهَوى وَالوُدُّ يَسقينا

وَاِسأَل هُنالِكَ هَل عَنّى تَذَكُّرُنا إِلفاً تَذَكُّرُهُ أَمسى يُعَنّينا[17]

يطلب الشاعر من السحابة التي يسوقها البرق أن تزور القصر التي تعيش فيه وتسقي حبيبته التي كان بينهما هوى وود كان يسقي حياتهما، طالبًا منه أن يسأل هنالك –أي في القصر، وهنالك إشارة للبعيد–

عنه، وهل يتذكره؛ إذ إنه كان يُظهر إلفته ثم أمسى لا يعرفه، كما تبرز تلك المحبة في بيت آخر في القصيدة نفسها، يقول فيه:

يا رَوضَةً طالَما أَجنَت لَواحِظَنا وَرداً جَلاهُ الصِبا غَضّاً وَنَسرينا[18]()

يشبِّه الشاعر القصر الذي تعيش فيه ولادة بالروضة الخضراء التي جعلت محبوبته تجني عشقهما فيها، يتمثل هذا العشق فيما تنبته تلك الروضة من ورد جلاه الصبا، طريا وكذلك النسرين وهو الورد الأبيض، كما يستمر الشاعر في مديح المكان الذي اكتسب أهمية بسبب من يقطنون فيه، قاصدًا ولادة بنت المستكفي بطبيعة الحال، فيقول:

يا جَنَّةَ الخُلدِ أُبدِلنا بِسِدرَتِها وَالكَوثَرِ العَذبِ زَقّوماً وَغِسلينا[19]()

يصف الشاعر القصر بجنة الخلد التي استبدلت بسدرتها، والسدرة المقصودة في هذا البيت ليست سدرة المنتهى في الجنة؛ لكنها شجرة نبق زُرعت على يمين عرش القصر، وأصبح نهر الكوثر –الذي هو نهر في الجنة– زقومًا وهو طعام أهل النار، وأصبح مشربهم وهو شراب أهل النار، وكما هو معروف فالغسلين هو قيح يسيل من أجساد المعذبين في النار، وهذا البيت يؤكد مدى حب الشاعر لمحبوبته وحسرته على ترك هذا المكان الذي كان يلتقيها فيه، فكأنما استبدل هذا المكان الذي يشبه الجنة بالنار، تأكيدًا على مرارة الفقد الذي لاقاها ابن زيدون، ومن ثم فأصبح المكان الأليف الذي شهد أجمل لحظات حياته مكانًا موحشًا أو لنقل إنه أصبح مكانا معاديًا، وهو ما دل عليه استبدال الشاعر جنة الخلد بالنار، أي أن هذا المكان كان في زمن ما جنة يأنس به وبمن يعيشون فيه ثم أصبح نارًا بعدما هجره الشاعر.

ثانيًا: أنسنة قرطبة:

حازت قرطبة على اهتمام الشعراء الأندلسيين بشكل لافت، فهي حاضرة الخلافة، والمدينة الأشهر، وعاصمة الأندلس على مدى قرون قبل تفككه وتحوله إلى دويلات، وقد برزت تلك المدينة في نماذج ليست قليلة في شعر ابن زيدون، وها هي تبرز في موشح ساحر، يزداد جمالاً كلّما تُعيد قراءته، قاله ابن زيدون وهو يتذكر قرطبة ومجالس أنسه فيها:

سَقى الغَيْثُ أطلالَ الأحِبَّةِ بالحِمَى
وحاكَ عليْها ثوبَ وَشْيٍ مُنَمْنما
وأطلعَ فيها للأزَاهِيرِ أنجُمَا

فكم رَفَلَتْ فيها الخَرَائِدُ كالدُّمَى
إذِ العَيْشُ غَضٌّ والزَّمانُ غُلامُ[20]

لقرطبة المدينة الآسرة مكانة خاصة لدى شعراء الأندلس جميعهم، ومنهم بطبيعة الحال ابن زيدون بوصفه أحد أهم الشعراء الأندلسيين الذين شكلت مدينة قرطبة والمدن التي أنشأها حكام الأندلس فيها مثل مدينة الزهراء، وقد قال ابن زيدون الموشح السابق ليتذكر تلك المدينة الأيقونة في الحياة السياسية والثقافية الإبداعية في الأندلس، فإن الغيث قد سقى أطلال الأحبة، أي الأماكن التي شهدت تفاصيل قصة حبه مع ولادة بنت المستكفي. يُبدع في ذكر صفات تلك المدينة التي صار الغيث فيها حاميًا وحارسًا لها، وصنع لها ثوبًا مزخرف ومرسوم عليه ما يُلفت النظر، وذلك لحسن هذا الثوب وأناقته، ومن ثم فهو يصف في الآن نفسه حُسن وأناقة قرطبة نفسها، وهي المدينة الأبية المنيعة التي رفلت: أي جرت ذيولها، ولهذه المفردة دلالة المنعة والقوة، وفي الوقت نفسه تحمل دلالات الجمال والزينة، فقد تزينت أبكار تلك المدينة الفاتنات حتى صارت كالدمى أو الألعاب المصنوعة التي تُسر الناظرين إليها وتدخل البهجة في نفوسهم، تلك المشاعر التي يُكنها ابن زيدون لقرطبة وقتما كانت حياته مُنعمة وعيشه فيها مترف والزمان كأنه فتى يافع يصنع ما يحلو له ليستمتع بقرطبة المكان الأقرب والأحب إلى قلب الشاعر.

نلحظ أن الشاعر يؤنسن المكان في هذا المقطع التالي من الموشح السابق نفسه، وذلك حين يقول:

أهِيمُ بجَبَّارٍ يَعِزُّ وأخْضَعُ
شَذا المِسْكِ مِنْ أرْدانِهِ يَتَضَوَّعُ
إذا جِئْتُ أشْكوهُ الجَوَى ليْسَ يَسْمَعُ
فما أنا في شيءٍ مِنَ الوَصلِ أطمَعُ
ولا أن يَزورَ المُقْلَتَيْنِ مَنامُ
قضِيبٌ مِنَ الرَّيْحانِ أثمَرَ بالبَدرِ
لَوَاحِظُ عَيْنيْهِ مُلِئنَ مِنَ السِّحْرِ
ودِيباجُ خَدَّيْهِ حَكَى رَوْنقَ الخَمْرِ
وأَلْفَاظُهُ في النُّطقِ كاللّؤلؤ النّثرِ
وَرِيقَتُهُ في الارْتِشَافِ مُدامُ[21]

والأنسنة في الشعر هي التوجه إلى الآخر المغاير للإنسان، وإلى عقلنته"[22]، و"تستند نظرة أنسنة الشعر إلى المبدأ الوظيفي للفن إجمالاً. ولذا تجد نفسها ضد جماليات التجريد، وضد جماليات النصوص

المتأملة"[23]، ونرى أن الشاعر في المقطع السابق يؤنسن المكان فيجعله جبارًا يغزوه ويخضعه إليه، أي يخضعه في محبته ويجعله إنسانًا يلبس أردية تفوح منها رائحة المسك، لكنه في الوقت نفسه لا يستمع إلى جواه وما يختلج صدره من محبة، فهو يعامل المكان معاملة الحبيبة، إذ قد يُرى أن المُخاطب في المقطع السابق هو حبيبته ولادة، لكنني أرى أن ثمة نزعة أخرى وهي الأنسة التي تجعلنا ننظر إلى المكان/ قرطبة بوصفه إنسانًا يحب ويكره ويمارس ما يمارسها الإنسان من مشاعر كأن يبعد عن حبيبه ابن زيدون فجعله يجافي النوم، وهو ما يظهر على مقلتيه المرهقتين جراء السهر وكثرة المناجاة في السحر، ويستكمل الشاعر نظمه مستخدمًا الآلية نفسها في جو من المحبة الخالصة التي تُقرأ محبة للحبيبة ولادة وكذلك للمكان نفسه، فيقول مستكملاً هذا الموشح:

سَقَى جَنباتِ القَصْرِ صَوْبُ الغَمَائِمِ
وغَنَّى على الأغْصَانِ وُرْقُ الحَمائِمِ
بِقُرْطُبَةَ الغَرَّاءِ دَارِ الأكارمِ
بلادٌ بِهَا شَقَّ الشَّبابُ تَمائِمي
وَأنْجَبَني قَومٌ هُناكَ كِرامُ

***

فكَمْ لِي فِيهَا مِنْ مَساءٍ وَإصباحِ
بِكُلِّ غَزَالٍ مُشرِقِ الوَجْهِ وَضَّاحِ
يُفدِّمُ أفْوَاهَ الكؤُوسِ بِثُغَّاحِ
إذا طَلَعَتْ في رَاحِهِ أنجُمُ الرَّاحِ
فإنَّا لإعظامِ المُدامِ قِيامُ

***

وَيَومٍ لَدَى النَّبْتِيِّ في شاطئِ النَّهْرِ
تُدارُ عَلَيْنَا الرَّاحُ في فِتيَةٍ زُهْرِ
وَلَيْسَ لَنَا فَرْشٌ سِوَى يانِعِ الزَّهرِ
يَذُورُ بِهَا عَذبُ اللّما أهْيَفُ الخَصْرِ
بِفِيهِ مِن الثَّغرِ الشَّنِيبِ نِظامُ[24]

ثمة منحى آخر يكمن في كون قصر قرطبة نفسه أصبح مكان فاعلًا في هذا الموشح، فهو الذي يقوم عليه الفعل الشعري، وهو الموصوف الأول في المقاطع السابقة، فقد سقى المطر جنباته، وهدل الحمام

فوق أغصان أشجاره وأوراقها، فهذا القصر يقطنه الأكارم لكونه واقع في قرطبة، تلك البلاد التي شهدت شباب الشاعر، وفيها أنجبته: أي جعلته نجيبًا، أي أن قومه علموه وجعلوه نجيبًا؛ هؤلاء القوم الذي وصفهم الشاعر بأنهم كرام، كما يتداخل المكان والزمان في هذا الموشح الذي يصنع خليطًا زمكانيًا[25] يبرز فيه تداخلهما مما يجعلنا ننظر إليهما بوصفهما عنصرًا واحدًا، من مثل (مساء، وإصباح) وذلك مع كون المساء والإصباح يكون في مكان هو مدينة قرطبة، تلك التي كان يأنس الشاعر فيها بإحدى المواضع الخلابة (النبتي في شاطئ النهر) تلك التي لم يكن له فيها فرش سوى يانع الزهر، أي أنه كان فيها فقيرًا فراشه الزهر اليانع الأخضر الذي يستأنس عنده مع الفتيات عذبات اللمى ذات الشفاه السمراء رقيقة الخصر.

لقد كان هذا الموشح من أكثر الموشحات التي نظمها ابن زيدون تعبيرًا عن حبه بل عشقه للمكان، ومما قال فيه:

وَيَومٍ بِجَوْفيّ الرُّصَافةِ مُبْهِجِ
مَرَرْنا بِرَوضِ الأقحُوانِ المُدَبَّجِ
وقابَلَنَا فيهِ نسِيمُ البَنفسجِ
ولاحَ لَنَا وَرْدٌ كَخَدٍّ مُضَرَّجِ
نراهُ أمَامَ النوَّرِ وهو إمامُ

***

وأكْرِمْ بأيَّامِ العُقابِ السَّوالِفِ
وَلَهْوٍ أثَرْناهُ بتِلكَ المَعَاطِفِ
بسُودِ أثِيثِ الشَّعْرِ بيضِ السَّوالِفِ
إذا رَفَلُوا فِي وَشْيِ تِلكَ المَطارِفِ
فليْسَ على خَلْعِ العِذارِ مَلامُ

***

وَكَمْ مَشْهَدٍ عِندَ العَقيقِ وَجِسْرِهِ
قَعَدْنا عَلَى حُمْرِ النَّباتِ وَصُفْرِهِ
وَظَبْيٍ يُسَقّينَا سُلافَةَ خَمْرِهِ
حَكَى جَسَدِي في السّقْمِ رِقّةَ خَصْرِهِ
لَوَاحِظُهُ عِندَ الرُّنُوّ سِهَامُ

***

فَقُلْ لِزَمَانٍ قَدْ تَوَلَّى نَعِيمُهُ
وَرَنَّتْ على مَرِّ اللَّيالي رُسُومُهُ
وَكَمْ رَقَّ فيهِ بالعَشِيِّ نسِيمُهُ
وَلاحَتْ لِسَارِي اللَّيْلِ فِيهِ نُجُومُهُ:
عَليكَ مِنَ الصَّبِّ المَشُوقِ سَلامُ![26]

كان الأندلسيون كثيرًا من يسمون المواضع أو الأماكن بأسماء مشرقية عربية، وكما هو معروف فإن الرصافة هي مدينة قديمة كانت في بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية في العصر العباسي تقع على الجانب الشرقي لنهر دجلة، ولشدة محبة ابن زيدون للمشرق وأماكنه أورده في شعره (جوفي الرصافة)، تلك التي ينبت فيها نبات الأقحوان الجميل الذي يزين تلك الروضة، ونلمح أيضًا أنسنة النسيم في قوله: (وقابلنا فيه نسيم البنفسج)، إذ جعل من نسيج البنفسج إنسانًا يمكن أن يقابل الشاعر، كما أن العقاب وهو اسم لمكان في قرطبة أحد المواضع التي شهدت حبه للمكان وكذلك أنسه بحبيبته ولادة. كثيرة هي الأماكن التي عجت بها تلك الموشحة، حملت دلالات الأنس والمحبة للمكان نفسه ولمن كان الشاعر يلقاهم في المكان أو الأماكن، وقد زاوج الشاعر فيها بين المكان والزمان، صانعًا ازدواجًا زمكانيًا ربما لم يكن الشاعر يعيه في حينه، لكن النقاد المعاصرين كتبوا عنه الدراسات الكبرى التي تبين كيف يقوم المبدع بتلك الثنائية التي تشي بتغلغل المكان والزمان في ثنايًا ما يكتبه، فالشاعر في المقطع الأخير من تلك الموشحة يؤنسن الزمان كما أنسن المكان (فقل لزمان قد تولى نعيمه) والشاعر في هذا المقطع يصنع ما يشبه رثاءً للزمان، ذلك الزمان الذي بليت وزالت آثاره الجميلة، بعدما كان نسيمه رقيقًا وكانت نجومه تدنو مُحبة للساري فيه، ومن ثم يختم الشاعر موشحته بإلقاء السلام على ذلك الزمان الذي أحبه مودعًا إياه أحر الوداع.

ثالثًا: صدى قرطبة والزهراء في المنفى:

تحضر أمكان أخرى غير قرطبة والزهراء في شعر ابن زيدون، وعلى الرغم من أنه نفي أو أبعد عن هاتين المدينتين؛ فإن ظلالهما أو صداهما يتجلى أيضًا في شعره الذي كتبه في تلك الأماكن، فها هو يقول بيتين وهو في طرطوشة، وهي مدينة بأقصى الشرق من الأندلس:

غَريبٌ بِأَقصى الشَرقِ يَشكُرُ لِلصَبا تَحَمُّلَها مِنهُ السَلامَ إِلى الغَربِ

وَما ضَرَّ أَنفاسَ الصَبا في اِحتِمالِها سَلامَ هَوىً يُهديهِ جِسمٌ إِلى قَلبِ[27]()

إن المكان الأليف في شعر ابن زيدون يرتبط ارتباطًا مباشرًا بحبيبته ولادة، وفي البيتين السابقين يصبح المكان الأليف موحشًا أو معاديًا، فها هو الشاعر يشكو غربته بمدينة بعيدة عن مكان حبيبته، وهو مدينة طرطوشة التي يحدد مكانها بأنها أقصى الشرق، وفي الوقت نفسه رياح الصبا التي تأتي من الشرق لأنها حملت وتحملت سلامه إلى الغرب وهو موطن ولادة، ثم يرى في البيت الثاني أن أنفاس الصبا ربما تكون محظوظة ولا مشقة عليها في احتمال السلام إلى الحبيبة، فلا ضرر في حمل شيء نفسي كسلام حبيب لحبيبة.

نظم ابن زيدون أبياتًا عذبة وهو في مدينة بطليوس التي تقع بالقرب من الحدود البرتغالية حاليًا، بعد فراره من سجنه ولجوئه إلى بني عباد في إشبيلية سنة 1049، وهو يتشوق إلى قرطبة ويتذكر أيام لهوه في منازهها التي كان يختلف إليها في الأعياد، ومما جاء فيها قوله:

لَئِن شاقَني شَرقُ العُقابِ فَلَم أَزَل أَخُصُّ بِمَحوضِ الهَوى ذَلِكَ السَفحا

وَما اِنفَكَّ جوفِيُّ الرُصافَةِ مُشعِري دَواعِيَ ذِكرى تُعقِبُ الأَسَفَ البَرحا

وَيَهتاجُ قَصرُ الفارِسِيّ صَبابَةً لِقَلبِيَ لاتأَلو زِنادَ الأَسى قَدحا

وَلَيسَ ذَميماً عَهدُ مَجلِسِ ناصِحٍ فَأَقبَلَ في فَرطِ الوَلوعِ بِهِ نُصحا

كَأَنّيَ لَم أَشهَد لَدى عَينِ شَهدَةٍ نِزالَ عِتابٍ كانَ آخِرُهُ الفَتحا

وَقائِعُ جانيها التَجَنّي فَإِن مَشى سَفيرُ خُضوعٍ بَينَنا أَكَّدَ الصُلحا

وَأَيّامُ وَصلٍ بِالعَقيقِ اِقتَضَيتُهُ فَإِلّا يَكُن ميعادُهُ العيدَ فَالفِصحا

وَآصالُ لَهوٍ في مُسَنّاةِ مالِكٍ مُعاطاةَ نَدمانٍ إِذا شِئتَ أَو سَبحا

لَدى راكِدٍ يُصبيكَ مِن صَفَحاتِهِ قَواريرُ خُضرٍ خِلتَها مُرّدَت صَرحا

مَعاهِدُ لَذّاتٍ وَأَوطانُ صَبوَةٍ أَجَلتُ المُعَلّى في الأَماني بِها قِدحا

أَلا هَل إِلى الزَهراءِ أَوبَةُ نازِحٍ تَقَضّى تَنائيها مَدامِعَهُ نَزحا

مَقاصيرُ مُلكٍ أَشرَقَت جَنَباتُها فَخِلنا العِشاءَ الجَونَ أَثناءَها صُبحا

يُمَثِّلُ قُرطَيها لِيَ الوَهمُ جَهرَةً فَقُبَّتَها فَالكَوكَبَ الرَحبَ فَالسَطحا

مَحَلُّ اِرتِياحٍ يُذكِرُ الخُلدَ طيبُهُ إِذا عَزَّ أَن يَصدى الفَتى فيهِ أَو يَضحى

هُناكَ الجِمامُ الزُرقُ تُندي حِفافَها ظِلالٌ عَهِدتُ الدَهرَ فيها فَتىً سَمحا

تَعَوَّضتُ مِن شَدوِ القِيانِ خِلالَها صَدى فَلَواتٍ قَد أَطارَ الكَرى ضَبحا

وَمِن حَملِيَ الكَأسَ المُفَدّى مُديرُها تَقَحُّمُ أَهوالٍ حَمَلتُ لَها الرُمحا

أَجَل إِنَّ لَيلي فَوقَ شاطِئِ نيطَةٍ لَأَقصَرُ مِن لَيلي بِآنَةَ فَالبَطحا[28]()

آثرت أن أورد أغلب هذه القصيدة لأنها تعبر تعبيرًا شعريًا مميزًا عن مدى حبه وتوقه لمدينته التي ولد وتربى وأحب وعاش الجزء الأجمل من حياته فيها، وفي القصيدة يعبر الشاعر عن شقاءه في المكان الذي يتواجد فيها وقت نظم القصيدة (شرقُ العُقاب)، لكنها في الوقت نفسه يتوق في حب إلى سفح جبل قرطبة، كما يشتاق أيضا إلى رصافة الأندلس التي بناها الأمير عبد الرحمن الداخل بضاحية قرطبة، تلك التي تثير شجنه بأبنيتها المتميزة وأسقفها الواسعة والعالية، وذكر ابن زيدون كذلك في هذا القصيدة عددًا من الأماكن التي يتوق إليها ويتذكر نعيمها فيها، منها: (قصر الفارسي، مجلس ناصح، عين شهدة، مدينة الزهراء، الكوكب الرحب، محل ارتياح، شاطئ نيطة، البطحا) وغيرها من الأماكن إنما يدل على مدى توقه إليها من ناحية، واعتزازه بتلك الأماكن التي لا مثيل لها في أي بلد زاره من ناحية أخرى، وتدل كذلك على كون المكان –قرطبة تحديدًا– بطلا رئيسًا في شعر ابن زيدون، يسعى من خلاله إلى تشكيل عالم شعري متميز عبَّر فيه عن تعلقه بأماكن لطالما شهدت ذكرياته، إما مع محبوبته ولادة، أو في مجلس الخليفة، أو أماكن يأنس فيها بمفرده مستمتعًا بأجوائها لكونها محل راحة وبهجة وسعادة. لقد كانت مدينة قرطبة بأماكنها الفريدة في تلك الأثناء محل تقدير ومحبة وسبب بهجة وسعادة في شعر ابن زيدون، مما يجعلنا ننظر إليها بوصفها أحد أهم مكونات قصيدته، فهي مكان فاعل أثار فكره وقلمه لنظم جميل الشعر.

خاتمة:

شكلت مدينتي قرطبة والزهراء وصداهما من مواضع وأماكن دلالات مهمة في شعر ابن زيدون، واستطاع من خلالهما أن يعبر عن مدى افتتانه بالمكان وأهله وناسه؛ لأن المكان لا يمثل نفسه فحسب، فهو الوطن والمأوى الذي يعيش فيه الإنسان حياته، وكذلك هو أحد أهم المكونات في الإنتاج الشعري، وكما كان العربي القديم الذي كتب المعلقات الجاهلية يولي الأماكن أهمية في شعره، فقد كان العربي في المغرب الأندلسي يقوم بالأمر نفسه، بل إن المكان الأندلسي – لا سيما في شعر ابن زيدون – أكثر بروزا في الشعر منه في شعر العرب المشرقيين، ذلك لتعلق ابن زيدون به وبمن يقطنونه، فسعى إلى إبرازه وأنسنته مخاطبًا إياه كأنه إنسان يسمع ويعي ما يقال له، وكما كان الطلل المشرقي بارزًا في شعر العرب الأقدمين، كانت قرطبة حاضنة الخلافة الأندلسية وقصر الزهراء أكثر بروزًا في شعر ابن زيدون، فتارة يطلب الشاعر من البرق أن يزور قصر ولادة بنت المستكفي ليسقي ما به من زرع، وتارة ثانية يؤنسن المكان مخاطبًا إياه مخاطبة المحب لحبيبه، وتارة أخرى يصف قصر ولادة بجنة الخلد التي بها سدرة المنتهى.

حضرت في شعر ابن زيدون أمكنة متعددة، حتى تلك التي نفي فيها مثل طرطوشة، التي تقع بأقصى الشرق من الأندلس، كذلك مدينة بطليوس، ولجوئه إلى بني عباد في إشبيلية، وسعت تلك الدراسة إلى الكشف عن دلالات تلك الأماكن الأليفة وكيف صورها ابن زيدون في شعره، متخذًا من عدد من النصوص التي نظمها ابن زيدون مادة للدرس، مما أدى بنا إلى النظر إلى تلك الأماكن/ المواضع – بوصفها مكان مفتاحي في شعر ابن زيدون– كما لو كانت إحدى مُلهماته التي جعلته ينظم أجمل ما نظم من الشعر العذب الرقيق.

المراجع

[1] – سيزا قاسم، القارئ والنص، العلامة والدلالة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ص 38.

[2] – نبيلة ابراهيم، خصوصية التشكيل الجمالي للمكان في أدب طه حسين، مجلة فصول المجلد التاسع العددان 1،2، ص49 الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، أكتوبر 1990.

[3] – غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1984، ص40.

[4] – انظر: المرشد إلى آيات القرآن الكريم، جمعه ودققه: محمد فارس بركات 458.

[5] – سورة مريم الآية 16.

[6] – سورة مريم الآية 75.

[7] – سورة يوسف الآية 78.

[8] – الخليل بن أحمد الفراهيدي، معجم العين، مادة مكن.

[9] – الصحاح في اللغة.

[10] – انظر: تاج العروس مادة مكن.

[11] – انظر: نظرية المكان في فلسفة ابن سينا، ص 179.

[12] – نفسه 38، 179.

[13] – رسائل الكندي الفلسفية، تحقيق محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الفكر العربي، القاهرة 1950، ج1، ص 167.

[14] – انظر: ياسين النصير، إشكالية المكان في النص الأدبي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986، ص 21.

15 – انظر: الأدب الأندلسي (النثر، الشعر، الموشحات)، فوزي عيسى، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2011، ص24.

16 – ديوان ابن خفاجة، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1986، ص84.

17 – ديوان ابن زيدون، دراسة وتهذيب: عبد الله سنده، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص 13.

18 – الديوان، ص 14.

19– الديوان، ص15.

[20] – الديوان، ص32.

[21] – الديوان، ص33.

22 – عبد الكريم يعقوب وديما يونس، أنسنة الليل في شعر ذي الرمة، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، نصف سنوية محكمة، العدد 21، جامعة سمنان الإيرانية، وجامعة تشرين السورية، ربيع وصيف 2015، ص 135.

23 – حسن ناظم: أنسنة الشعر: مدخل إلى حداثة أخرى، فوزي كريم نموذجا، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المغرب، و بيروت، لبنان، ط1، 2006، ص 10.

[24] – الديوان، ص 34.

[25] –"يحدد الزمكان الوحدة الفنية للمؤلف الأدبي في علاقته بالواقع الفعلي. ولهذا السبب ينطوي الزمكان في المؤلّف دائما على لحظة تقييمية لا يمكن فصلها عن الزمكان الفني الكلي إلا في التحليل المجرد. ذلك أن كل التحديدات الزمانية المكانية في الفن والأدب لا ينفصل أحدها عن الآخر، وهي دائما ذات صبغة انفعالية تقييمية. يستطيع التفكير المجرد أن يتصور الزمان والمكان كلاً على حدة ويغفل لحظتهما الانفعالية التقييمية. لكن التأمل الفني الحي – وهو أيضاً نابض بالفكر، إنما الفكر غير المجرد– لا يفصل شيئاً، ولا يغفل شيئاً. إنه يلّم بالزمكان في كل تماميته وامتلائه. إن الفن والأدب مخترقان بقيم زمكانية من مختلف الدرجات والأحجام. وكل موضوع جزئي وكل لحظة مجتزئة من المؤلّف الفني هي قيمة من هذه القيم". انظر: تزفيتان تودوروف، المبدأ الحواري . دراسة في فكر ميخائيل باختين، ترجمة فخري صالح، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد،1992 ص24.

[26] – الديوان، ص36.

المراجع:

1. تزفيتان تودوروف، المبدأ الحواري . دراسة في فكر ميخائيل باختين، ترجمة فخري صالح، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد،1992.
2. حسن ناظم: أنسنة الشعر: مدخل إلى حداثة أخرى، فوزي كريم نموذجا، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المغرب، و بيروت، لبنان، ط1، 2006.
3. ديوان ابن خفاجة، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1986.
4. ديوان ابن زيدون، دراسة وتهذيب: عبد الله سنده، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2005.
5. رسائل الكندي الفلسفية، تحقيق محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الفكر العربي، القاهرة 1950، ج1.
6. سيزا قاسم، القارئ والنص، العلامة والدلالة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ص 38.
7. عبد الكريم يعقوب وديما يونس، أنسنة الليل في شعر ذي الرمة، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، نصف سنوية محكمة، العدد 21، جامعة سمنان الإيرانية، وجامعة تشرين السورية، ربيع وصيف 2015.

8. غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1984.
9. الأدب الأندلسي (النثر، الشعر، الموشحات)، فوزي عيسى، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2011.
10. القران الكريم.
11. المرشد إلى آيات القرآن الكريم، جمعه ودققه: محمد فارس بركات، المطبعة الهاشمية بدمشق، د. ت.
12. نبيلة ابراهيم، خصوصية التشكيل الجمالي للمكان في أدب طه حسين، مجلة فصول المجلد التاسع العددان 1،2، ص49 الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، أكتوبر 1990.
13. نظرية المكان في فلسفة ابن سينا، حسن مجيد العبيدي، دار الشئون الثقافية العامة، 1987.
14. ياسين النصير، إشكالية المكان في النص الأدبي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986.